الخطاب المعماري العربي الاسلامي والغربي
"دراســـة مقـــارنـــة"

د. اكرم جاسم محمد العكام
قسم الهندسة المعمارية
الجامعة التكنولوجية

ملخص البحث

ركزت العديد من الطروحات على فكرة الخطاب المعماري والمعرف بالفضاء المفاهيمي الفكـــري ذات الخصـــائص الجوهرية القائمة على اسس معرفية وابعاد اجتماعية ودينية وثقافية وتاريخية مميزة. واشارت تلك الطروحات الـــى الخطـــاب المعماري الغربي ومفرداته المتعددة والخطاب المعماري العربي الاسلامي وثوابته العقائدية والبيئيـــة والثقافيـــة، الا ان تلـــك الطروحات لم تقدم صورة مقارنة واضحة للخطابين.

لذا يهدف التحقيق الحالي الى اجراء مقارنة بين مفردات الخطابين، مفترضا تباينا في أسسهما البنائية. ولتحقيق هدف الدراســـة فقد اعتمد البحث على اسلوب استعراض الادبيات النظرية المركزة.

اوضحت النتائج تباين الخطابين في غالبية المفردات والتي تشمل النظرة تجاه الوجود الانساني في الكون واسلوب فهم العالم الخارجي، طبيعة الانسان، مرجعية الخطاب وطبيعته، اعتمادية الخطاب وهدفه وسماته، الية البنـــاء الفكـــري للخطـــاب واصنافه، محاور التركيز والاهتمام، اسلوب التجسيد، مجال البحث، طبيعة النظرة للجمال وسبل انتاج القيم الجمالية وقواعدهـــا، ادراك المكان، وجهة النظر تجاه الابداع والعمارة كثقافة واصول مرجعيتـــها، الاصالـــة والمعـــاصرة، النظريـــة والتطبيـــق، خصوصية معايير التقييم، المعنى والتعبير وادواتهما، الارتباط المكاني والتعامل مع المحيـــط، واخـــيرا إيجابيـــات وســـلبيات الخطاب.

واخيرا اوضحت الاستنتاجات النهائية بان الخطاب المعماري الغربي يقوم على الانا والفلسفة الفردية ذات المرجعيـــة المتغيرة والقائمة على قوى التنافر والاختلاف ومضامينها كالتفكيك والتغريب والعدمية وخصائص الغموض والتعقيـــد متـــاثرا بالابعاد الزمانية ومحاولا تعظيم القيم الجمالية الشكلية باستخدام الفن والصور المسندة لرفع مستوى اللذة المادية لحياة الفرد. ان الخطاب الغربي خطاب علماني، علمي، مثالي، تجريدي، استقرائي، اديولوجي، منهجي.

اما الخطاب المعماري العربي الاسلامي فهو قائم على المعية ومبادئ شاملة ثابتة راســـخة تتمثـــل بـــالفكر الدينـــي والمرجعية العقائدية والتشريعية واصول العقيدة والبيئة والحضارة، ويعتمد على قوى التضام و التشابه ومضامينها كالاتصـــال والتجانس ومفردات البساطة والانسجام والوحدة، محاولا تعظيم القوى الروحية لحياة الفرد، والخطاب العربي الاسلامي خطاب استنباطي او استدلالي، نقدي، تأملي.

وبذا فان مفردات الخطاب المعماري العربي الاسلامي اكثر شمولية وديمومة وثباتا واستقرارا، ويقف فـــي مواجهـــة الخطاب الغربي.

Western and Arabic Islamic Architecture Discourse

Dr. Akram J. AL-Akkam
Dept. of Arch.
UNIV. of Technology

Abstract

Many literatures concentrated on the issue of architecture discourse which identified by the space of conceptual thought that has essential characteristics based on knowledge foundations and distinctive historical, cultural, religious, and social dimensions. These literatures pointed to western architecture discourse elements and Arabic Islamic architecture discourse and cultural, environmental and doctrinal reference, But these literatures didn't present clear comparative picture for those discourses.

The aim of current investigation is to conduct a comparison between those discourse elements, it hypothesized a variation between their structural foundations.

To achieve the study aim, the research depended on intensive theoretical literature review.

The results demonstrated, the variation of discourses at almost all elements which include, the view toward human existence in cosmos, the method of understanding of metaphysical world, the nature of human, reference of discourse and its nature, discourse dependencies, objectives and characteristics, the mechanism of conceptual thought, discourse building and types, interest and concentrating approaches, method of embodiment, research topics, the nature of viewing aesthetics and aesthetic values production methods and rules, spatial perception, viewing creating, architecture as a culture and its reference origins, contemporarization and originality, theory and practice, spatiality of evaluation criteria, expression and meaning and their tools, spatial correlation and surrounding behavior, and lastly the positively and negativity of discourse.

They study concluded that western discourse depends on ego and individual philosophy of variable references that standing on heterogeneity and deference's forces, and its inhabituations like deconstruction, unfamiliarity, nihilism, and the complexity and ambiguity characteristics. The western discourse is influenced by fourth dimension, trying to maximize formal aesthetic values by using art and concreted images. The western discourse is international, scientific, utopic, abstracted inductive, methodologist, and ideologist one.

The Arabic Islamic architecture discourse is depending on gathering and fixed comprehensive principles represented by culture, environment, doctrine origins, legislation, religious conceptual thoughts. The Arabic discourse depends on homogeneous and similarity forces and its inhabituations of compactness, simplicity, unity, and harmonious elements, trying to maximize spiritual forces.

The Arabic Islamic discourse is speculative, critical and deductive one.

To sun up this investigation the Arabic Islamic discourse is more stable, durable, and comprehensive one. And stands in apposition on western discourse.

-المقدمة

تنطلق فكرة الخطاب المعماري من الفضاء الفكري ذا الخصائص الجوهرية القائمة على مرتكزات واسس اجتماعية، دينية، ثقافية، تاريخية، او معرفية مبنية على طبيعة عقلية معينة يمكن تميزها عن سواها[١].

تناولت العديد من الطروحات الخطاب المعماري الغربي متفحصة العديد من مفرداته ومفاهيمه وبصورة مكثفة مسلمة بها دون محاولة تفحص مدى ملائمة تلك المفردات وخصوصية المجتمع العربي وثوابته العقائدية والبيئية والثقافية.

يهدف البحث الحالي الى اجراء مقارنة بين مفردات الخطاب المعماري الغربي والعربي الاسلامي، مفترضا تباين مرتكزات الخطابين.

ولتحقيق هدف البحث فقد صنفت الدراسة الى محورين رئيسين، يتناول المحور الاول طرح الادبيات ذات العلاقة بصورة مكثفة والتي تشمل الطروحات المعمارية الخاصة بـ (سامر عكاش، ١٩٩٩) ، (سعاد بودماغ،١٩٩٩)، (نظير بوعبيد، ١٩٩٩)، والطروحات الساندة المأخوذة من حقل المسرح المعرفي بعد اجراء مماثلة مع العمارة والمتمثل بطروحات (ثروت عبد المسيح، ١٩٨٥) فيما تناول المحور الثاني بلورة نتائج الطروحات ومناقشتها تمهيدا لبناء الاستنتاجات النهائية.

٢- الطروحات النظرية.

أ- طروحات *(بودماغ،١٩٩٩)[٢]

تناولت الطروحات الخطاب المعماري الغربي والعربي الاسلامي واخيراً القيم الجمالية

اولا- الخطاب المعماري الغربي

قدم فتروفيوس(vitruve) في العصر الروماني في كتابه (de architectura) الاسس العلمية الضرورية للمعماري ورفعه الى مرتبة "المعلم" تميزا له عن الحرفيين والبنائين.واستمرت عملية الفصل بظهور كتاب الايطالي ليون باتيست البرتي تحت عنوان دي ري ايديفيكاتوريا (de re aedificatoria) في عام ١٤٥٢ حيث طرح مفاهيم السيطرة في عملية البناء والابداع في فن العمارة ،فكان مشروعه تحديدا لجملة المبادئ والقوانين المتحكمة في العملية التصميمية على كل مستويات المدينة وحتى الريف، متخذا في هذا منهجية عقلانية علمانية. عمل البرتي في كتابه على تحديد مسؤولية المعماري ومهامه تحديدا يغير من وضعه داخل التركيبة الاجتماعية ،وارسى بهذا قيام صنف مهني جديد يتعذر انتسابه الى البنائين والحرفيين التقليدين وقد نجم عن ذلك انحصار مهمة ومسؤولية البناء والتعمير في شخص المعماري المختص ،بما في ذلك من ابداع وتصميم وتنظير، اعتمادا على معرفة مختصة ومستقلة لعملية البناء.فاصبح المعمار هو المنوط به التعبير عن ثقافة المجتمع وحضارته نيابة عن الذاكرة الجماعية.

ولعل أخطر نتاج النصوص الخطابية الالبرتية، التي صمدت عقودا من الزمن ،هو تأثير منظورها في سائر النظريات التي عرفها الفكر المعماري الغربي بتقلباته منذ عصر النهضة .ويتجلى ذلك في اصدار هذه النظريات الى يومنا هذا على اقامة معرفة علمية خاصة ومستقلة لعملية البناء ،على الرغم من الاختلاف في أساليب التعبير ووسائل البناء. دأب الخطاب المعماري الغربي على سيرة فتروفيوس والبرتي في تشييد هيكل من القوانين والحتميات يرسي عليها مفهوم العمارة وتطبيقاتها للهيمنة على البيئة المبنية.

ومضى الفكر المعماري الغربي على هذا الحال خوضا في الابحاث لتحديد ميدان معرفي مستقل ذي شرعية علمية يحدد مرجعية عقلانية حقيقية وتقييمية صحيحة للعمارة. لكن اهم اشكالية قابلها المنهج التنظيري في مسيرته التقدمية هو الشرخ الذي افرزه التطبيق على الواقع من خلال عدم تطابقه لتصورات الدراسات النظرية،حتى انه كثيرا ما اخفقت المنجزات في تجسيد

---

* استاذ مساعد بمعهد الهندسة المعمارية بجامعة منتوري – قسطنطينة- الجزائر

مبادئ هذا الخطاب. احتدم الجدل بين التنظير والتطبيق بعد فصلهما لينجم عنه في القرن التاسع عشر مع قيام الثورة الصناعية ظهور صنف جديد من الخطابات المثالية المنتسبة لليوتوبيا (Lesutopies) التي تطوح تصورات مثالية للبيئة على مستوى خيالي من خلال مفهوم النموذج المثالي (Lemodele).

وقع الفكر المعماري في ازمنة التعريف وشرعية انتماء العمارة من جديد وعلى الرغم من لفت الانتباه الى طبيعة الاختلاف والخصوصية التي يقوم عليها التعبير المعماري ،وعلى الرغم من النجاح في افراز سجل مفردات ومفاهيم جديدة وفي تحديد وسائل بحثية وتقييمية مختلفة عما سبق استعماله في ميدان العمارة ،الا ان هذا التيار باختلاف اساليبه مازال يتمسك بنظرة احادية محدودة ومجردة للعمارة من مضامينها، اذ تتوقف عند استقراء النتاج المعماري دون محاولة بلوغ العملية المعمارية نفسها ،مما ادى الى سجن العمارة داخل هيكل من الارقام والحسابات والقياسات والتحليلات الرياضية.

وتشير الطروحات الى ازمة الخطاب المعماري الغربي المعاصر، اذ انتهى المطاف بالفكر المعماري الغربي وخطابه التنظيري بعد قطع شوط كبير من الزمن الى استبدال الحقائق المطلقة والمسلمات القديمة بسيل جارف من الشكوك والتوسلات ،اجبرته على اعادة النظر في الاسس والقيم المعرفية لكل ما توصل اليه ،وبخاصة بعد اصطدامه بعقم العملية التصميمية .فرغم التسليم باستحالة الابداع خارج فكر معماري ذي نظرة شمولية وموفقة بين التنظير والتطبيق وموازنة بين المتغيرات المتضاربة في عملية العمارة ،مازال المعماريين يحرصون على الاستمرار في محاولة عقلنة الابداع وعلمنته.الا انه بخوضهم في ميدان العلوم الحديثة افقدوا كل ثقة ومصداقية وحتى شرعية لقيمهم.

ويوقع الخطاب المعماري في صميم علاقة المعرفة بالتطبيق اصبحت اهم المعايير التقييمية له هو ما يقدمه من جديد فيما يخص العلاقة القائمة بين هذا الزواج ،الوضع الذي جعل الخطاب التنظيري سجين معضلتين مهمتين يحددهما روبرت بروست (Robert Prost) في مشاكل الشرعية من جهة ،وعراقيل حائلة دون التطور من جهة اخرى. يرجع بروست ازمة الشرعية لمجموعة من الاسباب اهمها:عقدة هشاشة الوضع العلمي للتنظير المعماري ينجم عنها بلبة في تحديد الميدان المعرفي وجدل في خاصية مجال وكيفة المعماري .فيثير هذا الوضع العديد من الاستفهامات حول نوعية النتاج التطبيقي وكيفية تحديد طرق الانتاج المعماري، أسئلة حول منظومة الاشخاص المعنين بالعمارة وبخاصة حول ما يمت الى المهنة ونوعية المؤسسات السياسية التي تقوم عليها حتى اصبح كل خطاب تنظيري يسعى الى التوفيق بين كل هذه النقاط والالمام بكافة المسائل المطروحة بغية اكتساب شوعية موضوعية وعلمية. كما يعلل بروست هذا "الضعف المعرفي "بتعدد واختلاف الدواعي المنهجية وتقابل بين الطرق التحليلية المتبعة في المعارف والاختصاصات الخارجة عن ميدان العمارة (تاريخ،سوسيولوجيا،سميائية،نظامية...) والطرق التحليلية الاكثر تخصصاً بالعمارة والمستقرأة من الاعمال التنظيرية المعمارية... فضلا عن تضارب الدراسات المتعلقة باساليب الاظهار والتشكيل ومحاولت التنظير للعمارة مقابل الابحاث التي تستهدف البعد الاجمالي في العمارة وانتمائها للفنون عامة وتقابل الدراسات التجريبية المختلفة واحتدام اشكال مصداقية كل منها، وافضل مثال على هذا هو ما جرى بالنسبة للدراسات والمناهج المتضاربة التي استقطبتها النمطية (Typology). وما زاد الوضع تازماً هو ان معظم المعارف التحليلية التي توصلت اليها الخطابات المعمارية شعشعت في وسط الخطابات النقدية وحتى الشاعرية او الخيالية (اليوتوبية)وفي حقيقة الامر تعود لبة الاشكال الى التحيز الذي يصر عليه المعماريون وتمسكهم بنظرة احادية يريدونها ان تكون ملمة بشتى جوانب"الظاهرة المعمارية" .هذا بالاضافة الى رفضهم استغلال الميزة الديناميكية التي يضفيها تنوع المناهج

على ميدان البحث في مجال العمارة .ان هذا النوع من المواقف يميل الى المفارقة التاريخية نظرا لتزامنه مع ظهور مبدا النسبية الذي تدعو اليه شتى العلوم وتوجهاتها الجديدة في معالجة طبيعة المعرفة ذاتها، حيث بدأ يتضح للمفكرين الغربيين عجزهم عن الوصول الى معرفة قادرة على استيعاب كافة تعقيدات وتركيبات الاحوال المتعلقة بالطبيعة الانسانية ضمن نظام محدد ، مما أدى الى البحث عن منهجية معرفية جديدة تقود الى معرفة تحترم الخاصية المركبة والمعقدة لهذة الطبيعة لعلها تتمكن بذلك من الالمام بالعملية المعمارية .

ان اهم العراقيل التي تقف أمام تطور الفكر المعماري، هو ان قيام الخطاب التنظيري على علاقة المعرفة بالتطبيق (connaissance / action) يستوجب التطرق الى نوعين محددين من الخطاب لارتباطها مباشرة بعملية البناء والتعمير: أولهما الخطاب التعليمي او التحديدي (Discourse prescriptive) وهو الخطاب الذي يعرض تعليمات وتوصيات موجهة للعملية المعمارية على اساس شروحات وتوضيحات بينة ، وثانيهما الخطاب المتعلق بالطرق التنفيذية او التطبيقية .

يقف المعماري المعاصر عاجزاً بين فكره ونتاجه وبين المجتمع اذ انه في سياقه وراء الشرعية العملية وفرط الاصرار على ايجاد سبيل لاختراع العمارة والتحكم في عمليتها ، افتقد المعماري الشوعية الاجتماعية بقطع حبل الوصل مع المجتمع .

خلاصة القول ان ازمة الخطاب المعماري الغربي ناجمة عن تداعي مفهوم العمارة وتصدعه كتركيبة متكاملة بشكل رئيسي من استئصال العملية المعمارية من مجالها الطبيعي الا وهو المجتمع الأم . وتم هذا الاستئصال بعزل عملية إنتاج العمارة عن القاعدة الجماعية الواسعة التي تنتمي اليها.

ثانيا- الخطاب المعماري العربي

يسعى المعمار العربي باستمرار الى التخلص من الشعور باضمحلال هويته والتبعية الفكرية للغرب ، فيلتمس في دينه قاعدة وركيزة لترسيخ عقائدي لافكاره وغاية وهدفاً لأعماله ومورداً لابداعه .

وكثيراً ما يتخذ الخطاب صبغة الالتزام بالوعظ والتهذيب في تفسيره لهدف العمارة وجوهرها من المنظور الاسلامي ، وهذا ناجم عن اقتناع بكون العمل على اصلاح البيئة العمرانية والسعي في احياء ونهضة العمارة الاسلامية وفكرها جزءاً لا يتجزأ من المشروع الحضاري العربي الاسلامي الشامل . فقد جعل الوازع الديني التفكير في العمارة يندرج داخل اطار تعزيز الصحوة الاجتماعية والثقافية للتصدي لمشروع الحداثة والعولمة[٣]. الخطاب العربي المعاصر هو خطاب نقدي هادف لتحديد فكر المعماري من المنظور الاسلامي لغرض احياء عمارة اسلامية محلية بخصائصها وعالمية بتطلعاتها التصميمية . فيقوم هذا الخطاب على جمع واحصاء ما يجب ان يكون المعمار العربي المسلم على معرفة به بحكم عقيدته وأصله البيئي والثقافي الحضاري ليتمكن من تحديد ما يفتقده. وبامكاننا تقسيم هذا الخطاب الى نوعين رئيسيين هما الخطاب التأملي ، والانجازي ، الاول الخطاب التأملي وهو خطاب نقدي تحليلي يندرج في نوعية النصوص التعليقية والتفسيرية فيما يخص عملية البناء وجوهر العمارة وتقويم البيئة العمرانية . ويعج هذا الخطاب بالتعابير والمفاهية والاستفهامات بتفسيرية العمارة ، متخذاً منهج التأويل للتدقيق في المصطلحات والمفاهية المعمارية استناداً للنصوص القديمة والفلسفة الاسلامية ، ومركزاً على الدلالة الروحية والمعنوية ومحددية التصور المادي [كما يبحث هذا الخطاب في أصول عملية تكوين الخطاب المعماري العربي الاسلامي منذ نشأته الى مرحلة نضجه ، للتعرف على طبيعته واستكشاف المبادئ والمفاهيم الأساسية التي يمكن

استغلالها في بناء فكر معماري عربي اسلامي معاصر.

اما النوع الثاني: فهو الخطاب الذي يمكن اعتباره خطابا انجازيا نظرا لتركيزه على تحديد اسس ومقومات الالية المولدة للبيئة المعمارية .وانطلاقا من تعقيد التركيبة البيئية الحقيقية التي اقر بها الفكر الغربي ضمن احدث اتجاهاته، -يسعى الخطاب الانجازي المصاغ داخل اطار الفكر الاسلامي الى تحليل الواقع مسلما بقصور العقل الانساني في الاحاطة بكل تعقيدات الوجود البيئي وبهذا يغاير الفكر المعماري الغربي الذي يستمر في معالجة الاشكال بطريقة عقلانية وعلمانية بحتة.

تعتبر هذه الخطابات "المنظومة العمرانية"مشروعاً تبحث في تحديد السبل لانجازه داخل المنظومة الحضارية الشاملة. وتعتمد في ذلك على الفكر الديني والمرجعية العقائدية التشريعية لحل اشكالية التعقيد انطلاقا من مبدا ثبوت المعايير الاساسية لتقييم مضمون العمارة تبعاً لحكم الشرعية الدينية كمرجع ثابت صالح لكل مكان وزمان، إلى جانب حرية اختلاف مقدرات التشكيل والتعبير نظرا لارتباطه بالمكان والزمان، وهذا هو الجانب الذي على الانسان ان يجتهد فيه بعقله وابداعه.

وتهدف هذه الخطابات الى استخلاص مبادئ واضحة مقنعة لبناء وتوجيه الفكر المعماري وتدعيم العملية التصميمية بارساء قواعد محددة لتعريف العمارة المحلية بعيدا عن التوجهات الغربية ،وانطلاقا من دحض المبادئ الفلسفية التي تقوم عليها هذه التوجهات وبرهنة عدم صلاحيتها للتطبيق على المجال العربي الاسلامي كما يعتمد هذا الخطاب على النصوص التعليقية والتأملية لتحديد منظوره للعمارة وتاطير المعضلات التي يجب على البيئة العمرانية حلها.

من المبادئ المميزة للفكر المعماري العربي المدعم بالفكر الديني الاسلامي شمولية التصور باعتبار العمارة والعمران الية محكمة متطورة بشكل دائري تصاعدي مركزه الثابت الشريعة وضوابطها المستمدة من القران الكريم والسنة الشريفة الى جانب الاحكام التشريعية المتعلقة بالبنيان والعقار وباقي مصادر الفكر الاسلامي ،اما الدوائر المتصاعدة فهي الاعراف المتمثلة في نتاج العقل البشري لابتكار الحلول المعمارية واختيارها. وهنا تكمن فلسفة الفكر المعماري العربي الاسلامي في التوفيق بين المعاصرة والتاصل بتاطير الفكر والعقيدة عن طريق التشريع الديني لضمان الاصالة مقابل الدفع للعقول بطريق فردية وجماعية لبلورة الاعراف بالاجتهاد والابداع الفكري في حدود الحقوق الفردية والجماعية التي تبينها الشريعة .

ويحث الخطاب الانجازي على تدوين واستيعاب المفردات المعمارية والتشكيلية في العمارة التراثية بهدف التعرف على التراث واقتباس الثوابت منه لترسيخها بمضونها في وجدان المعمار العربي حتى يتمكن من استغلالها في العملية التحليلية والتصميمية بادراك جديد ومتأصل في بيئتة ،حتى انه يوجد تيار يحث على تدوين التفاصيل والاشكال للتقليد والمحاكاة باعتبارها منطلق للاحياء والابداع.

يعتمد الفكر المعماري العربي استنباط القيم التراثية من وجهة نظر انتمائها التأريخي ، وباعتبارها خلاصة التجربة السابقة والقدرة على الافكار والاتقان الحرفي الممتزج بالقيم الفنية المتوارثة للعرف. يستنطق الفكر الغربي التاريخ ليعطيه القوانين العامة والتي يمكن تطبيقها في كل زمان، ويستنبط الفكر العربي الاسلامي روح هذه القوانين من ايمانه بالقرآن والسنة وفكر الائمة والمجتهدين في تحديد المضمون. فالمعماري العربي يتخذ العقيدة الاسلامية اطاراً لفلسفة خطابه وبحثه. إذ لا يوجد ابداع وخلق من دون استنباط وتأمل ، وهذا هو العامل الروحي الذي ينظر الى ميدان العلوم وصلاحياتها مع كونه نقطة الالتقاء بالعقيدة والايمان الديني. فهذا هو المرجع الذي اتخذه العربي لتحقيق ذاته وفكره. فالفكر الاسلامي يسعى

للتوفيق بين الحس والمادة، والذات والروح، والدين والدنيا، والعقيدة والعلم.

ثالثا- معايير القيمة الجمالية

افتقدت العمارة المعاصرة أسس الجمال الكلية من جراء ما سبق شرحه من تمادي الفكر المعماري في فرض نظام عالمي عقلاني تجريدي، حتى غاب الانسجام والتجانس بغياب قاعدة مرجعية ثقافية متماسكة، الوضع الذي تسببت فيه الفلسفة الفردانية التي دعمت استقلالية العمارة مع طمس شرعية وحق الاختلاف القائم على الاختلاف البيئي والثقافي. هذا الى جانب قطع الوصل المفهومي والتعبيري في العملية التصميمية بين المصمم الفرد وهو المهندس المعماري ومن يصمم من أجله في غيابه، الأ وهو المجتمع. فتكالبت الاسباب واستغلت الهيمنة الشكلية التشويش الثقافي في غياب لغة تعبير حسي وذوقي مشترك، وتلاعبت الايديولوجيات المختلفة والاذواق الشخصية بمفهوم الجمال حتى النقت في البيئة العمرانية نفسها اتجاهات متنافرة من المستقبلية والسريالية الى الرجعية والكلاسيكية، وأطلق الفنان للتصور العشوائي والشخصي لقيمة الجمال في العمارة.

لقد استقطبت القيمة الجمالية اهتمام المعماريين منذ الخطاب المعماري حيث كانت افكار البرتي من بوادر تكوين علم الفن الذي يعلق الغرب آماله عليه للتحكم في سر الابداع الجمالي. واستمر البحث بالخطابات النمساوية حول العمران ، حيث عرفت تبلوراً بافكار كاميلو سيت (Camillo Sitte) في القرن التاسع عشر لتبلغ أوائل القرن العشرين نظرية (الموديلور) (modulor) للكوربوزية (Le Corbusier)، هذا المقياس المستوحى من العمارة الكلاسيكية كأساس للنظرية الجمالية. يعود هذا المقياس نفسه والذي يتحدر من نظام النسب الالبرتي الى الانظمة المعمارية الشكلية كقانون التماثل وغيره من الانظمة الاغريقية. وحتى يومنا هذا عجزت كل القياسات الشكلية في التوفيق بين قوانين الشكل الجيد والقيم الجمالية الاجتماعية وبالمقابل يطرح الخطاب المعماري العربي المعاصر مبدأ لا انفصام بين الشكل والمضمون في العمارة، فهو يعتبر القيمة الجمالية وليدة لهذا الانصهار. ويعرف المضمون الاسلامي على انه العامل المشترك والموحد للعمارة الاسلامية باختلاف مواطنها، في حين ان الاختلاف التشكيلي الناجم عن البيئة والحضارة يعد من عوامل الغنى والتطور في الابداع والتعبير الجمالي. والخطاب المعماري العربي يؤكد ارتباط الميزة الجمالية او الوظيفة التجميلية للمفردات التشكيلية والتفاصيل المعمارية من تشكيلات هندسية او زخرفية او مقرنصات او تكسيات بوظيفتها ، حيث يضفي الابداع الفني قيمة اكثر على الجانب الوظيفي ويجمع بينها الجمال في صيغة شاملة متكاملة . وقد أشار المعمار حسن فتحي الى ما هو اهم من التجميل والوظيفة العملية في تأكيد هوية العمارة وتنمية الاحساس بالانتماء لها، معللا أن الغاء هذه العناصر من قاموس العمارة الحديثة قد يخلق فراغا كبيرا في ثقافة المعمار العربي الاسلامي. كما يميز الخطاب المعماري العربي بالنسبة للمعايير الجمالية بين الاحساس العاطفي والاحساس الفكري. يعتبر الانسان العربي الاحساس بالجمال في حد ذاته تأملا في الكون وعبارة عن حالة انسجام باطني بين الكون والانسان المتأمل لجمال هذا الكون ، قد يكون لهذا التصور للجمال جذور في الطبيعة البيئية للانسان العربي وما توحيه من عمق في الاحساس والتأمل الشاعري ، طبيعة نفسية عززها الدين الاسلامي بدعوته الى الهدوء والسكينة. فان احساس المسلم بالجمال يكون في الراحة النفسية التي تعيشها المسطحات الهادئة للالوان والمرتبطة بمقياس الانسان ... اذا كان الاسلامي يعنى بالتنغيم في تلاوة القرآن ، فان احساس المسلم بالجمال يكمن في الايقاع البسيط المتغير النبرات. وفي جميع الاحوال فاحساس المسلم بالجمال يكمن في عمق ايمانه بالله خالق كل شئ وما يوفره هذا الايمان من صفاء للنفس ونقاء للجسد يجعله في حالة نفسية تهيئه للاحساس بكل هذه القيم الجمالية.

يكمن الفرق بين القيم الجمالية القائمة على فلسفة اسلامية والقيم الجمالية القائمة على فلسفة الغرب اساسا في كون الاولى مدعمة بالتوجيه الاسلامي لمفهوم الجمال والتجميل في حدود المنفعة والاستعمال، بينما تتخذ الثانية التزيين كغاية وهدف في حد ذاته ، هذا الوضع الذي جعل الاشكال المفرغة من المضمون، القائمة على قواعد مادية وتقنية ومبادئ جامدة تطغى على جوهر الجمال وادراكه الحسي والتأمل العاطفي، فقد حذر الاسلام من التطاول في البنيان والاسراف في الزخارف ودعا للالتزام بالوسطية. ولا يكف المعماري العربي الاسلامي عن الاستشهاد في خطابه بالآيات القرآنية والأحاديث التي تنهى عن الاسراف والخيلاء والبذخ في العمارة. وبهذا فالخطاب العربي الاسلامي يبقي القيمة الجمالية اساسا نتاج عملية عفوية تعكس ذوقا حدسيا نابعا من المخزون الثقافي والبيئي والعقائدي. تكمن فعالية الدين الاسلامي في كونها تهذب الذوق استنادا الى قواعد اجتماعية وسلوكية لتفادي التفاخر والابتذال والمفارقة، فتقوم مقام الحكم بين الحس والفكر باعتبارها المعيار الثابت المحفز في عملية التفاعل بين الامكانيات المادية والتقنية والابداع والذوق الفردي داخل الذوق الجماعي في حدود الحقوق والحريات.

ب- *طروحات (سامر عكاش ، ١٩٩٩)[٤]

تركز الطروحات على التوجهات والمشاكل المعاصرة للعمارة وخصوصا مشكلة وعي الذات النظرية والتطبيق ، الشكل والوظيفة والفراغ، حدود المكان واهتماماته، الحيز وتقلب الظروف .

وتوضح الطروحات بأن الفكر الغربي يركز حاليا على الآنية والفردية والتغيير التي تقتضيها ظروف الحداثة والمعاصرة ، اما المشاكل فقد تركزت حول محورين، مشكلة الهوية اضمحلالها وإشكاليات إعادة صياغتها والتعبير عنها ، ومشكلة تركيز التنظير المعماري المعاصر على مسائل الشكل والفراغ والجماليات وتجاهله البعد الانساني . ومن الدراسات الفلسفية المهمة ايضا التي قادت الى اعادة النظر في اساليب تنظير وفهم العمارة هي كتابات الفيلسوف الالماني مارتن هايدغر (١٨٨٩ ١٩٦٧) فقد قام هايدغر بنقد لفلسفة رينيه ديكارت (١٥٩٦ –١٦٥٠) التي تشكل القاعدة الاساسية لعقلانية العلوم الحديثة . النقطة الجوهرية التي اثارها الفكر الهايدغيري هي ان تعامل الافراد مع موجودات محيطهم المالوف من ناس واشياء لا يقوم بالضرورة على فهم نظري مسبق او على وعي الفرد الذاتي لما يقوم به، وانما على الخبرة المستقاة من التجربة والنظر في مضمون هذه التجربة.

وعلى الجانب العربي هناك دراسات حديثة عن العمارة والتنظيم العمراني في المجتمعات الاسلامية القديمة تعزز التشكيك في فعالية النظريات الحديثة في حل المشكلات العمرانية التي تعانيها المدن العربية، كما تشكك في ملاءمتها لتطلعات الافراد واحتياجاتهم في المجتمعات العربية ومن هذه الدراسات تلك التي قام بها بسيم حكيم وصالح الهذلول وجميل أكبر ، والتي ركزت على المصادر الفقهية والتشريعية ، كاحكام البنيان لابن الرامي ، ووجهت الانظار الى العلاقات الاجتماعية والممارسات الحياتية في المجتمعات الحضرية القديمة التي استمدت تنظيمها وتطورها العفوي من الاعراف والتقاليد والاحاديث النبوية الفقهية ، وليس من تصورات شمولية نظرية قائمة على دراسات تحليلية وفرضيات علمية . تكمن اهمية هذه الدراسات في التركيز بالدرجة الاولى على البعد الانساني الاجتماعي للعمارة والعمران ضمن الواقع الديني ، في حين ان امور الشكل والفراغ وتفاصيل المكان تصبح انعكاسا لاحتياجات ومستلزمات هذا الواقع ، والخلفية الضرورية التي تدرك من خلالها الشبكة المعقدة للعلاقات الاجتماعية.

اولا- العقل والجسم : وعي الذات للأشياء

يعتبر الفيلسوف الفرنسي ديكارت (Descartes) رائد العقلانية في الفلسفة الغربية ومؤسس

---

* محاضر في جامعة اديلاد – استراليا، ومدير مركز العمارة الاسيوية والشرق اوسطية

القواعد الفكرية للعلوم الحديثة ، واليه يعزو كثير من الفلاسفة والمفكرين المعاصرين مسألة التمييز بين العقل والجسم (Mind and Body) والذات والموضوع (Subject and Object) التي قامت عليها مناهج البحث العلمي . ولا شك في ان ديكارت في منهجه الفلسفي الذي انشاه على التشكيك في حقائق الوجود الظاهرة وفي اساليب ادراك جميع الموجودات قد افصح عن اهتمام رئيسي بالفرد كـ " كائن واع " (Conscious Being) وبالاشياء الحسية(Objects) الخارجة عن الوعي الذاتي كموجودات مستقلة بذواتها تقف مقابل هذا الوعي ، لذا فقد سعى من خلال مشروعه الفلسفي الى تكريس الفصل الصريح بين العقل والجسم والى نصب حاجز من الوعي الذاتي ترى من خلاله الذات – غير المتجزئة وغير القابلة للتجزؤ – أشياء العالم الخارجي المتجزئة والمتعددة يقول ديكارت في تأملاته.

أنشغل ديكارت بتحديد دور الحواس ، كونها صلة الوصل بين العقل الواعي والاشياء الخارجية ، وبتحديد طبيعة المحسوسات التي تنتمي الى العالمين العقلي والحسي . هنا يوضح ديكارت تصوره لاسلوب فهمنا للعالم الخارجي على انه عقلاني بحت فهو يرى ان الادراك المباشر لصور المحسوسات عبر الحواس لا يتم بالواقع الا بوساطة العقل الذي يساعدنا على فهم هذه المحسوسات ، يقول ديكارت ((أنا أعرف الآن ان الاجسام لا تدرك بالحواس او الخيال بل بالعقل فقط ، وانها لا تدرك من خلال كونها ملموسة او مرئية بل من خلال كونها مفهومة)) يعني ان المحسوسات لا تدرك الا بعد محاكمة عقلية للصور المحسوسة تقود بالنهاية الى الفهم. وتعبر مقولته المشهورة ((أنا افكر اذا أنا موجود)) (cogito ergo sum) عن بيان ان الوجود البحت الذي لا يتطرق اليه أي شك هو العقل فقط ,وبيان ان من طبيعة هذا العقل ان يكون واعيا مفكرا قادرا على النظر في ذاته وفي كل الاشياء الخارجية عنه,وان لهذا العقل الحكم النهائي في جميع المدركات .اما الجسم الممتد ذو الابعاد فهو من لوازم الوجود. وبهذا وضع ديكارت التمييز الفلسفي التقليدي بين العالمين العقلي والحسي (Intelligible and Sensible) ضمن تصور جديد قائم على ثنائية الوعي والامتداد

ثانيا-النظرية والتطبيق

ترى الفلسفة اليونانية التي أسست فكرة "النظرية "(theory) ان الانسان يستطيع فهم العلم بشكل نظري من خلال البحث في الكليات والثوابت التي تنتظم فيها متغيرات الحياة والطبيعة والكون.كما ثابر فلاسفة الاسلام على التميز بين عالمي العقل والحس ,وعلى اعتبار المعرفة النظرية هي التي تؤهلها لفهم العالم بكافة ظواهره وموجوداته, وان المعرفة النظرية اشرف واعلى مرتبة من الممارسة العملية , التي تنقل هذه المعرفة الى حيز التطبيق .يعرف ابن سينا الفلسفة فيقول: "ان الغرض في الفلسفة ان يوقف على حقائق الاشياء كلها على قدر ما يمكن الانسان ان يقف عليه".فحقائق الاشياء الثابتة هي الاصول التي تقوم عليها المعرفة النظرية للكليات التي تنظم فيها الجزيئات المتغيرة. تميز مصادر الفلسفة الأسلامية بين النظري والعملي "رسالة الصنائع العلمية " تحدث الاخوان عن مثنوية الطبيعة الانسانية (النفس والجسد) وعن الصفات التي تخص كلا من النفس والجسد وعن العلم والمعلوم والتعلم والتعليم . الا ان فصلهم هذا لا يقوم على "الوعي الذاتي" كما في الفصل الديكارتي. فلم ينظر الاخوان الى النفس من جهة كونها اداة العقل الواعي فقط , كما لم يحولوها الى ذات واعية متعالية عن الحسم غير الواعي ,وانما اعتبروها "جوهرة روحانية" سماوية نوراتية حية بذاتها علامة بالقوة ,فعالة بالطبع ,قابلة للتعليم ,فعالة في الاجسام , ومستعملة لها,ومتممة للاجسام الحيوانية والنباتية الى اجل معلوم...

ثالثا-العمارة:الشكل-الوظيفة-الفراغ

اشكاليات التنظير المعماري,التي تكرس الفصل الديكارتي بين الذات الوعية واشياء العالم ,تبرز بالدرجة الاولى في اساليب التعامل مع الشكل والفراغ

من قبل كل من المعمار والعامة,فالمعمار بطبيعة دراسته الاكاديمية يتميز من العامة بمعرفته النظرية التي تخص بالدرجة الأولى التركيبات الشكلية والفراغية من انسجام وتناسب وتضارب وتلاعب بالكتل والحجوم والظل والضوء والتنويع في المواد وغيرها من الأفكار المطروحة للاستهلاك في سوق العمارة اليوم.وهذه الأفكار لا يشاركه فيها الجمهور الذي يشغل اهتمامه الأمور المادية والنفعية. ان انعكاسات هذا الفصل على اسلوب التفكير في العمارة يمكن ملاحظتها ايضا في الخطاب المعماري المتداول .فالنقاش المستمر حول مفهوم الفراغ (Space) والمكان (Place) غالبا ما يكشف عن رغبة في البحث عن علاقة ما للانسان بمحيطه البيئي يبدو انه قد فقها . وفي الخطاب العربي المعماري المعاصر درج استعمال كلمة "فراغ " او"فضاء" في مقابل كلمة "Space". فالمعماريون وطلاب العمارة يعتمدون في التعبير عن أفكارهم وتصاميمهم على هذين المصطلحين اعتمادا رئيسيا ,حيث يتحدثون عن الفراغات او الفضاءات المعمارية والعلاقات والنسب الفراغية وغيرها من التعابير التي تعبر عن ادراكات ترتكز على ادراك مفهوم الفراغ او الفضاء كشيء مستقل قائم بذاته[فالحديث عن الفراغ يقود الى ادراك للصورة المعمارية قائم على نوع من الفصل الديكارتي بين ذات المصمم الواعية والصورة المعمارية المصممة ذات الأبعاد ,كما لو ان المصمم واقف خارج هذا الفراغ المدرك ويتعامل معه كشيء مستقل عنه اما الخطاب المعماري العربي فيرى هذه العلاقات المعنوية بين الاشياء الجامدة والافعال والاحوال الانسانية تفسح المجال لادراك المكان ليس فقط بصفة الفلسفة المجودة , وانما ايضا كامتداد للاحوال الانسانسة التي تجعل من هذا الفراغ المجرد الثابت مكانا ذا طبيعة متلونة متحولة . ويمكننا تقصي الامثلة على هذا النوع من الادراك في كثير من الكتابات الوسيطية . فابن عربي مثلا يتحدث في الفتوحات عن "معرفة المكان واسراره" في فصل الاحوال التي يتناول فيه احوال المتصوفة في ممارساتهم الحياتية . وهو يبحث في مفهوم المكان ضمن سلسلة من المواضيع تبدو لنا غريبة (السالك والسلوك-السفر -الحال-المقام-الشطح-الطوالع-الذهاب... الخ) , الا انه من جهة نظر التجربة الوصفية التي تسعى لدوام التواصل مع الحضرة الالهية تفقد الاشياء استقلاليتها الوجودية وتصبح ادوات تخدم احوال المتصوف وتعزز همته. فالمكان يرتبط بالاينية ، والاين سؤال عن وضع ما يخص المتمكن يقول ابن عربي:"... المكان في الذوات كالمكانة في المراتب..." والمكان في هذا التصور يتبع الحال فيصبح مثلا "... رحمة حيث كان لان فيه استقرار الاجسام من تعب الانتقال ..."والانتقال هنا ذو بعدين : انتقال الافكار والاحوال وانتقال الاجسام . وينقل الغزالي في كتاب الاحياء مجموعة من الاحاديث في موضوع الصلاة تبين بوضوح كيف ان هذا التصور للعلاقة مع الموجودات والامكنة تقود الى تصور امكانية التفاعل الحي معها. فالمكان واشياؤه ليست فقط امتدادات في الفراغ ذات احداثيات هندسية تعرفها وانما موجودات ذو طبيعة حية وخصائص متميزة ومتفاضلة يقول الغزالي: "... وقال علي (ع): اذا ...مات العبد يبكي عليه مصلاه من الارض ومصعد عمله من السماء ثم قرأ (فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين) الدخان:(٢٩)، وقال ابن عباس : تبكي عليه الارض اربعين صباحا. وقال عطاء الخراساني : ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الارض الا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال انس ابن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة او ذكر الا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل الى منتهاها من سبع ارضين وما من عبد يقوم يصلي الا تزخرفت له الارض . ويقال ما من منزل ينزل فيه قوم الا اصبح ذلك المنزل يصلي عليهم او يلعنهم".

رابعا-الاهتمام والخواطر وحدود المكان

لخص هوبرت درايفوس (Hubert L.Dreyfus) الاشكال التي اثارها هايدغر في المناهج الفلسفية

التقليدية في خمس نقـــاط . اولا الوضـــوح النظـــري (Explicitness) وهو المبدأ الذي يرى ان الفرد يفعـــل بتطبيق المعرفة النظرية التي كلمـــا ازدادت وضوحـــا ازدادت فعالية الافراد. ثانيا التصور الذهنـــي (Mental Representation) : وهو المبدأ الذي يرى انـــه لكـــي يستطيع الفرد التعامل مع الاشياء يجب ان يكون هنـــاك تصور ذهني لهذه الاشياء يوجه افكاره واهتماماته. ثالثا التنظير الكلي (Theoretical Holism) : وهو المبدأ الذي يرى ان الاشياء الانسانية يمكن تفسيرها بشكل نظـوي. رابعـــا الفصـــل والمضوعيـــة (Detachment and Objectivity) : وهو المبدأ الذي يرى ان الفهم النظري الموضوعي هو افضل من الفهم العملـــي لانـــه يمنـــح استطاعة اكبر على العمل خامسا الفرديـــة المنهجيـــة (Methodical Individualism) : وهو المبدأ الذي يعمـــم التجربة الفردية كمنهج لتفسير الظواهـــر الاجتماعيـــة والتصورات الجماعية .

فقد حول هايدغر في ابحاثه الفلسفية الســـؤال التقليدي عن معنى الوجود الذي يقـــود الـــى البحـــث االفلسفي المجرد في مفهوم الوجود ومراتب الموجودات الى سؤال يركز على الانسان من جهة وجـــوده فـــي العالم ووجوده مع الناس والاشياء. وبهذا سعى الـــى تحول النظر من "الوجود" فقـــط او وجـــود الانســـان ووجود الاشياء كل على حـــدة ، الـــى"الوجـــود فـــي" و"الوجود مع" . فالشخص الذي يدرس موجـــود فـــي المنزل ومع الاشياء التي وصفناها ، وفي كل لحظة من لحظات وجده لابد من ان يوجد في محيط محدد ومـــع اشياء محددة . فنحن لا نوجد قط في فراغ او خـــلاء ولا يمكن ان نوجد بمنزل عن بـــاقي الموجـــودات او خارج العالم ,ولو انه بامكاننا توهم ذلك ,كوننا قـــادرين على تصور الاشياء المستحيلة الحدوث والحديث عنـــها . الوجود في العالم ومع الاشياء يقود الى النظـــر فـــي المحيط الذي يمثل العالم بالنسبة للافراد . فقولنا العلـــم يعني بالدرجة الاولى المحيط الصغـــير الـــذي يحـــدد وجودنا المكاني والزماني، وبالدرجـــة الثانيـــة العـــالم باسره الذي نملك تصورا عنه ، ولكنه غير حاضر لنـــا باكمله في اية لحظة من لحظات وجودنـــا .فنحـــن لا يمكننا الخروج عن عالمنا والنظر اليه باكمله كموجـــود مستقل عنا الا بالوهم .فالمحيط هو المكان الذي نوجـــد فيه ,وحرف الجر "في"يعني "الضمنية " أي ان وجودنـــا يكون ضمن مكان محسوس يكشف لنا عن جزء مـــن مكان اوسع معقول هو العالم . في اطـــار الممارســـة الحياتية يتنقل الانسان بين امكنة عديدة يخزن منها فـــي خياله صورا كثيرة ومتنوعة هذا يدعونا الى النظر فـــي طبيعة المكان وحدوده . الا انه علينا تجنب البحث فـــي خواص المكان بشكل مستقل مقابل صوره المدركة فـــي النفس, لان هذا يعود بنا الـــى الازدواجيـــة التقليديـــة القائمة على الفصل بين الاشياء والذات. ويقول هايدغر ان اهتماماتنا هي التي ترسم حدود محيطنا وهي التـــي تحدد علاقتنا بالاشياء فوجودنا في العالم ووجودنا مـــع الاشياء هو وجود قائم على الاهتمام وليس على الوعي الذاتي لا شك في ان للاشياء وجودها المســـتقل عـــن اهتماماتنا ، ولنا اهتمام بالاشياء مـــن جهـــة وجودهـــا المستقل ، الا انه في اندماجنا العفوي في حياتنا اليومية ، اهتماماتنا هي التي ترسم اشـــكال محيطنـــا وتحـــدد حدوده.

خامسا-الحيز وتقلبات الاحوال

فالنظر الى اللاشياء والمجودات من وجهـــة نظر الفلسفة التقليدية يقود الى اعتبارهـــا مـــن حيـــث وجودها في نظام هرمي يقف علـــى قمتـــه الخـــالق ، الموجود، العلة الاولى ، ويقف في مقابلة هذه القمة في مركز قاعدة الـــهرم الانســـان ، الـــذي هـــو افضـــل الموجودات الحسية التي تشكل قاعدة الهرم وخلاصـــة العملية الخلقية . في هذا التصور تظهر ثلاثة اصنـــاف من الموجودات :

الخالق والموجودات الحسية والهرم او الواسطة الـــذي هو العالم . هذا من جهة العلة (أي علة الايجاد). امـــا من جهة طبيعة الموجودات فالعقل يميز بيـــن اربعـــة اصناف من الموجودات:

(١) موجود قائم بنفسه غير متحيز كالعقول المفارقـــة للمواد وروح الانسان وطبيعة العلم ،

(٢) موجود قائم بنفسه متحيز كالأجسام (جسم الانسان) والجواهر(المواد الحسية) ،

(٣) موجود قائم بغيره متحيز كالأعراض ,وهي الألوان والصفات ،

(٤) موجود لا قائم بنفسه ولا بغيره ولا متحيز ولا غير متحيز لا موجود ولا معدوم كالجهات.

هذان التصنيفان يخصان الموجودات من جهة الوجود الكلي ، اما من جهة الموجود نفسه فقد قسم الوجود الى اربع مراتب: (١) الوجود العيني ، أي وجود الشيء بذاته، (٢) الوجود الذهني ، أي وجود الشيء في الفكر والخيال ، (٣) الوجود الرقمي ، أي وجود الشيء مكتوبا او مرسوما ، (٤) الوجود اللفظي ، أي وجود الشيء في الكلام. استخدم مصطلح "حيز" في الفلسفة الاسلامية لتحديد الوجود الجسماني . فالموجودات المتحيزة هي الاشياء ذات الابعاد والاشكال والحدود. أي الاشياء الحسية في الطبيعة . اذا توخينا الدقة في المعاني الفلسفية فلا شك في ان مصطلح "حيز" ومشتقاته لدق من مصطلح "فراغ" في التعبير عن مصطلح "Space" ومرادفاته "Spatial" و"Spatiality" وعلاوة على ذلك فانه اقدر على استيعاب افكار هايدغر والتعبير عنها. يعتبر مصطلح "حيز" ومرادفاته عن العلاقة بين الوجود الجسمي للشيء ومحيطه المكاني ، فان "حيز" الشيء يمكن ان يعني جسميته وان يمتد المعنى ليتضمن المكان الذي يحتوي ذلك الشيء ، أي الاشياء التي "بحوزة" هذا الموجود او هذا المتحيز . فحيز الوجود الفردي الذاتي لا يقتصر على الوجود الجسماني فقط ، وانما يمتد ليشمل ما بحوزة الفرد بالمعنيين الرفي والمجازي للكلمة ، أي الموجودات التي تحيط بالفرد للتعبير عن هذا المعنى يستخدم هايدغر تعبير "ما في متناول اليد" (Ready-to-hand) لبيان حدود محيطنا الذي نشغله في وجودنا العفوي في حياتنا اليومية . أي ان حدود محيطنا ما هو في متناول يدنا ، او في حوزتنا .فمفهوم الحيز اعطانا معنى الفراغية والجسمانية في ان واحد ، واعطانا معنى المحيط كونهما في متناول يدنا. ارتباطنا المكاني بالاشياء يقوم على درجة اهتمامنا بهذه الاشياء التي في حوزتنا , أي المالوفة والتي اعتدنا على ان تشكل مواد عالمنا.

طروحات المتصوفة الذين اولوا موضوع الاهتمام والخواطر اهمية كبيرة وتأملات النفري في موقف القرب : "... القرب الذي تعرفه مسافة والبعد الذي تعرفه مسافة ، وانا القريب البعيد بلا مسافة ..." ليست الا تجسيدا لمفهوم "الحيز" ضمن اطار التجربة الصوفية . فالمتصوفة بشكل خاص ركزوا على الامور التي توجه اهتمامات الانسان وبحثوا في طبيعة خواطره المتقلبة ، التي تعتبر تفكيره وتدفعه للانشغال بامور دون غيرها . فأشاروا الى ان تقلب الخواطر هو الذي يوجه اهتمامات الانسان التي بدورها تهيئ للتقلب والتغير في محيط وجوده . فالتجربة الصوفية تتمحور حول قدرة المتصوف على التحكم بافكاره وممارسته من خلال السيطرة على خواطره واهتماماته . وقد تحدث المتصوفة عن الهمة والخواطر والحضور والاحوال والمقامات مالمواقف والذوق والشطح والتجلي والكشف والشهود ضمن علم مفصل دقيق لتجربة الحياة اليومية اجتهدوا في تنظيره وتطبيقاته.

ج طروحات *(نظير ابو عبيد ,١٩٩٩)[٥]

اولا –العمارة والمجتمع

العمارة ظاهرة اجتماعية, حيث يوجد عاملان اساسيان في كل وضع فني .متطلبات الجماعة النظمة وارادة الفنان . وفي جميع الاحوال ، الفنان ملزم باقناع الجماعة بقبول عمله المبدع. وعملية القبول هذه تكون جزءا من ممارسات الجماعة الثقافية وهذا ما ينطبق على العمارة .يقول هربرت ريد ان التعبير الفردي ايضا هو رمز اجتماعي ، وعليه فان الفن يستطيع ان ينمو ويتطور في مناخ احتماعي مناسب . وتاريخيا لم يكن الانتاج الفني انتاجا فرديا بل جماعيا ، اذ كانت الملامح اساطير جماعية يبتدعها المجتمع . كما كان

---

* رئيس قسم العمارة – جامعة العلوم والتكنولوجيا الاردنية.

المجتمع باسره بانيا لصروح معمارية تتطلب تعاونا اقصى بين الجماعة . كما ان العمارة فن وظيفي ونفعي . والاستعمالية هي ضرب من السلوك الاجتماعي ، ومن شان النفعية ان تدرج العمل المعماري في العالم وفي استخدامية العمارة ,يقول زكريا ابراهيم ان مستخدم المبنى يكون هو نفسه جزءا من العمل المعماري ، من خلال سلوكه المسرحي المملوء بالاحترام للمبنى . وفي التوافق في هذه الصورة يكون تكافؤها مع غايتها . وكما يقول بول سوريو فان الجمال هو التكيف الكامل للموضوع مع وظيفته . يضاف الى ما ذكر ، ان العمارة محكومة بطرائق انتاجها التي تؤثر في التشابه القاعدي لاشكالها ، وفي هذه الحالة تصبح العمارة متأثرة بدورها الوظيفي الانتاجي. والعمارة تؤثر في المجتمع، فالفن – ومنه العمارة – عنصر اصيل ومهم في تركيب المجتمع، والفنان في تكوين التراث الجماعي لمجتمعه. والفن، الذي يبدأ نشاطا فرديا، لا يلبث ان ينسجم بسياق الحيلة الاجتماعية، بعد ان يتعرف المجتمع على خصائص خبرته ويبدأ بنخزينها في وجوده الجمعي . يقول جيو ان الفن يحمل في ذاته مجتمعا مثاليا جديدا ، يستدرجنا للامتزاج به عن طريق التعاطف مع الصورة الفنية. ويضيف بان الفنان العبقري يتصور مجتمعا مثاليا يساهم في تعديل المجتمع القائم. وباعتبار العمارة رمزا اجتماعيا يقول دوركهايم ان الرمز ليس مجرد اداة للتعبير، بل هو لازم لنشوء الوعي الجماعي ، مما يجعله عاملا في خلق الاعتبارات الجمعية او تغيرها.

اما بالنسبة للعمارة كثقافة فهنالك بعد مهم يرتبط بالثقافة العربية وهو وحدوية هذه الثقافة ، التي تشكل ،كما يقول الجابري ، بعدا جوهريا مهما في الفكر الحضاري العربي .ويقترح الجابري في نقده للعقل العربي ،بان عناصر الثقافة العربية هي كل متكامل، والتكامل مطلوب في الثقافة العربية بغض النظر عن صورها الثقافية . وفي محاولة لابراز قيمة الدين في تعزيز وحدوية الثقافة ، يضع سامر عكاش النقيض في المقارنة والتحليل وهو فكر التداعي او ((التفكيكية)) السائد الان في الغرب، فقد نظر معماريون التفكيكية الى منظومة الوحدة والتألف على انها متوارثة واعتبارية دينية. كما رفض المعماريون اعتبار العمارة انعكاسا لمضمون فكري معين ، ونادوا بالمرجعية الذاتية والاستقلالية المعمارية . وكانت نتيجة هذه الطروحات انهدام المرجعية الفكرية للمفاهيم المعمارية وتجريدها من المعاني الخارجة عن تشكيلها ثم يؤكد عكاش حاجتنا الى مرجعية دينية واخلاقية تتمتع بسلطة قوية لتعزيز الوحدة الثقافية ، التي بدورهاتحفظ الفكر المعماري . ومجتمعنا على أي حال ، لا يزال فيه الافكار الدينية والمفاهيم الاخلاقية تتمتع بسلطة قوية وعند حصول أي تداع في هذه السلطة فان هذا سيتجسد في شتى الاشكال الثقافية ، ومنها العمارة. الا اننا يجب ان نتذكر ان الشكل الثقافي لا يرتبط ضرورة بالعقيدة ، يقول رفعة الجادرجي ان الاعتقاد بان الشكل هو حصيلة لعقيدة معينة، وهو تصور وهمي وفيه تجاهل لآلية استيلاد الشكل. ويضيف الجادرجي بأنه من الخطأ التسليم بأن طرازا لعنصر معماري مرتبط بالعقيدة الاسلامية كشكلية ثابتة. والمجتمع وفكره المتمثل بالسلطة الدينية لا يخلق شكلية الشكل وخصوصيته، ولكن دوره في العملية الاستيلادية ينحصر في تحديد المطلب وظروف انتاج الشكل، وبالتالي منحه الشرعية ليظهر مقوما لهوية العقيدة.

ثانيا- الأصالة والمعاصرة

يقول نيتشه ان الفنان المبدع مدان لا محالة ، والسبب في ذلك القضاة الذين يصدرون احكامهم على ما هو جديد لا يستطيعون الوقوف على حقيقة رسالتة ، بحجة ان الفن يستمد من الماضي سلطته وطابعه الاثري وهذا ما اسماه نيتشه بقتل الفن بالفن، او بعبارة اخرى ((دعوا الموتى يدفنوا الأحياء)). وتوازن الهوية هي المرجع في تقييم القديم والجديد ويرجع الجادرجي في هذا الامر الى مفهوم الهوية للفرد، اذ ان الاشكال التي يتعامل معها الفرد في طفولته، تؤلف ذكريات راسخة في الذاكرة وتصبح مرجعا مهما لتكوين الهوية ودعمها. وهو يرجع لهذه الاشكال كلما

ارتبكت هويته على اعتبار ان هذه الاشكال مقومات ملموسة ومستقرة الا انه يجب الانتباه هنا الى ان الاستقرار لا يكون بالضرورة حقيقة هذه الاشكال، ولكن تقتضي قناعة الفرد باستقرارها وأهميةاستقرارها . ومن جهة اخرى فان الاطمئنان الناتج من الارتكاز الى هذه الاشكال . لا يخفف عن الفرد حدة الارتباك النفسي الناتج من عدم فهمه للظواهر الجديدة .

ثالثا- المعنى والتعبير

ان الفن طريقة للتعبير، واللغة التعبيرية للاشياء النفعية، ومنها العمارة قادرة على تبليغ المعنى . لقد صنف ريد الفن البدائي الى ثلاثة نماذج : اثنان هندسيان وثالث عضوي تصويري. وادعى بأن احد الفنين الهندسيين هو هادف ومرتبط بالرمز، وقد نشأ تلبية لمتطلبات الجماعة، فهو تربوي وطقوسي عميق ومثل هذا الفن يكون عادة تجريديا لا يستقي البهجة من الطبيعة العضوية للأشياء، لكنه يتجه لتحريفها لمصلحة واقع خفي من الممكن ان يكون دينيا. ويعود ريد في موقع آخر ليصف الفنانين التجريديين بانهم يدعون بأن الاشكال التي يخلقونها تتعدى الاهمية الزخرفية ، ويذهب للقياسات التناسبية المتأصلة في تكوين الكون وتحكم النمو العضوي للاحياء. وربما توازي هذه الفكرة طرح سامر عكاش المتعلق بالهندسة المنتظمة ، حيث يشير الى التركيز عليها من موروث العمارة العربية الاسلامية، على حد قوله ، كما يشير الى دلالتها على مرجعية الوحدة والتالف لنتاجات تلك العمارة ، على رغم الاختلاف في الاجتهاد في تجسيد هذه المرجعية على مر من الحقب الزمنية، باعتبار العمارة رمزا اجتماعيا يقول دوركهايم: ان فهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل ما بين شكله المادي ومدلولاته الاعتبارية الجمعية ويقترح الجادرجي انه لمعرفة مدى تأثير دلالية اشارة ما ومنها بالطبع الشكل المعماري ، فما علينا الا الاحتكام الى التعامل الحقيقي للمجتمع مع هذه الاشارة .

رابعا- ادراك المكان

يقول توني هيس في كتابه تجربة المكان، الذي يطرح فيه مفهوم ما يسمى بادراك الاحاسيس من قبل غيبسون في نظريته الايكولوجية للادراك الحسي (Ecological Theory of Perception)، حيث يقول ان الجهاز الحسي ليس مجرد ناقل للمعلومات، ولكنه جهاز ادراكي متكامل مع كل المعلومات البيئية من بصرية وسمعية وروائح وغيرها. ويرى بان تنظيم المعلومات البيئية ولاكتشاف النظام البيئي علينا بالاستكشاف والحركة بحثا عن المزيد من النظم المعلوماتية، لذا فان سرعة ادراكنا لما حولنا يعتمد على مستوى التنظيم الموجود في شبكة معلوماتية لها نظم هي الاخرى بمستوى هذه التقاطعات.

وتقترح النظرية التفاعلية في الادراك (Transactional Theory of Percept)، بان الواقع المدرك وليس الواقع البيئي الحقيقي هو المرجع في عملية التفاعل البيئي الانساني. وفي هذه الحالة ، لا يستطيع ان نفصل بين البيئة والانسان كمثير ومستجيب. والعلاقة تصبح دينامية وعضوية والادراك يأخذ مستويين : الاول هو تقييم الانسان للبيئة، والثاني هو تقييم الانسان لاستجابته لها. وبالتالي، فالانسان في كلتا الحالتين هو المحك. ان موضوع الصور الذهنية يذكرنا بطروحات كل من كيفن لينش وأبليارد في تصور المدينة. فقد اقترح لينش بأن فهمنا لبيئة المدينة يعتمد على وضوح الصورة الذهنية لها، كما اقترح بان التصور الذهني للمدينة يعتمد على ثلاثة مركبات هي التكوين البيئي والهوية والمعنى. أما التكوين البيئي فهو التنظيم الفراغي او الطوبولوجي لعناصر المناطق والممرات وحوافها وبؤر نشاطاتها وعلاماتها المميزة. اما الهوية، فهي مرتبطة بالنوعية التشخيصية لعناصر المدينة. لذا، يجب ان يعرف العنصر الذي سيحمل هذه الهوية. اقترح أبليارد بأننا نتذكر المباني بسبب تميزها (الشكلي) وموقعها بالنسبة لزاوية النظر التي ترى من خلالها، وبسبب أهميتها الاستخدامية والثقافية. وربما من المناسب هنا ان نستذكر التميز الذي طرحه

ألدو روسي ما بين الاهمية الاستخدامية والاهمية التأريخية للمبنى، حيث أقترح بأن المباني التأريخية المهمة تبقى محافظة على اهميتها التأريخية حتى لو تغيرت استخداماتها. اما بالنسبة للمعنى، فقد أغفل – تقريبا – في دراسات لينش التفصيلية لصورة المدينة الذهنية على الرغم من وروده كبعد أساس في هذه الصورة. وقد أثارت هذه النقطة رابوبورت الذي اعتبر المكونات البصرية بانها غير كافية لتفسير ادراك الناس لمدنهم، فهناك مؤثرات مهمة اخرى مثل القيم الاجتماعية والفردية والمتغيرات الثقافية المختلفة، او ما أسماه دوركهايم بالمدلولات الاعتبارية. وللتركيز هنا، فقد دخلت هذه العوامل في اعتبارات النظرية التحويلية في الادراك حيث اعتبرتها جزءا من التجارب الانسانية المتراكمة. لذلك، اقترح هاريسون وهاوارد ما يسمى بالمجموعة الثقافية من العوامل التي تعتبر مهمة لوضوح الصورة الذهنية، اضافة الى العوامل الفيزيائية التي تم ذكرها. وقد ضمت المجموعة الثقافية كلا من المعنى والارتباط ، حيث احتوى المعنى لعناصر المكان صفات اقتصادية واجتماعية وسياسية وعرقية وتأريخية ووظيفية، بالاضافة لصفتي الملائمة والراحة، بينما احتوى الارتباط صفات الصلة بالعنصر والألفة والانطباع العام. وتقسيم هاريسون يقودنا الى طرحين رئيسين في دراسة البيئة من قبل علم النفس البيئي وهما: الطرح السيمانتي ويقابله المعنى والطرح السيميائي ويقابله الارتباط. وقد أجرى عدد كبير من الدراسات السيمانتية، وأذكر منها دراسات كولر (Kuller) وهيرشبرغر (Hershberger)، في الغرب لهدفين : الاول، ايجاد الابعاد المعنوية التي يرجع اليها الناس في الحكم على بيئاتهم. والثاني: ايجاد الاثار الايجابية والسلبية لهذه البيئات في حياة الناس ومن خلال هذه الابعاد المعنوية. يعتمد وضوح الصورة الذهنية على التنظيم الفيزيائي والمعنوي والارتباطي لعناصر المكان. بمعنى اخر ، ان ذاكرة المكان تعتمد على تنظيمية شخوصه وتكاملهم الا اننا يجب الا نغفل نقطة مهمة هنا، الا وهي ان المشهد المكاني لا يكتمل الا بوجود الاشخاص كجزء مما هو مدرك وليس فقط كمشاهد مدرك .

د – طروحات (ثروة عبد المسيح ،١٩٩٩)

ومن الحقائق التي ينبغي ألا تغرب عن البال طبيعة وجودها في الكون لكوننا جزءا منه ، قد يكون نقيضا او متما له، ففي حالة النقيض يكون وجودنا في العالم انسلاخا منه او تغريبا عنه وفي الحالة المتممة يكون وجودنا اغناءا له واثراءا على جميع الأصعدة لان الوحدة والتجانس تيسر حركة جميع الفعاليات الوجودية فيما يفعل الانسلاخ فقدان الرؤيا واختلاط المعايير وتراكم المقاييس في فوضى لكل القيم والارادات المتباينة المتضاربة [٦]. ويرى المسرح الارسطي الطبيعة الإنسانية ثابتة ساكنة شانها شان الطبيعة بمعناها الميتافيزيقي كونها نسخة طبق الاصل من تلك الطبيعة.اما المسرح اللارسطي فيركز على ظواهر عدة أهمها العزلة والعدمية والتغريب الذي يعني جعل الشيء المألوف يبدو غريبا، فالأمور غير المتوقعة تحدث فجاءة والتسلسل الحتمي ينتفي وجوده ويقول سارتر " من العبث أننا ولدنا، ومن العبث سنموت " في إشارة إلى ظاهرة العزلة باعتبارها وحدة الإنسان في هذا العالم[٧]. أما (Esslin) في كتابه مسرح اللامعقول فيتطرق إلى مبادئ هذا التوجه خلال الخروج عن الانسجام بصورة غير منطقية أو عقلانية، وقطع الجذور الدينية والميتافيزيقية لذا فهو مسرح الموقف ،كما يستخدم مسرح اللامعقول الصور المسندة (concrete images) وليس البراهين الخطابية , لذا فهو لا يستطيع أن يحل المشاكل ولا يعتزم ان يخبر قصة ،بل للتواصل بنمط من الصور الشاعرية (poetic images) وبينما يعتمد المسرح الارسطي على المفاهيم الفكرية ((conceptual) thought) الاحداث، الانسجام، وجعل المشاهد منتسبا ، يعتمد المسرح اللارسطي على الافكار الصورية (imaginal thought) المواقف، الخروج عن الانسجام واخيرا جعل المشاهد ملاحظا[٨]. ويبدو ان استراتيجية المسرح الارسطي تتواءم مع استراتيجية الوحدة في العمارة فيما تتواءم المسرح

اللارسطي مع استراتيجية التعقيد والتناقض في العمارة.

٣-النتائج

اوضحت نتائج طروحات (سعاد بودماغ) تباينا بين الخطاب المعماري العربي الاسلامي والغربي، اذا تباينت مرجعية الخطاب المعماري الغربي والمعتمد على الفلسفة الفردية الداعية إلى استقلالية العمارة عن مرجعيه الخطاب المعماري العربي الإسلامي والمعتمد على الفكر الديني والمرجعية العقائدية والتشريعية، كما تباينت سمات الخطاب المعماري الغربي في كونه عقلاني، عالمي، علمي، علماني، تجريدي، مثلي عن الخطاب المعماري العربي الاسلامي التأملي الاستنباطي، النقدي و التحليلي المسلم بقصور العقل الإنساني عن الاحاطة بكل تعقيدات الوجود البيئي. اما من حيث طبيعة الخطاب، فلقد امتاز الخطاب المعماري الغربي بالاستقلالية المعرفية للعمارة ومن خلال بناء هيكل معرفي علمي خاص بها، وتمسك المعماريون بنظره احادية ملمة بشتى جوانب الظاهرة المعمارية وبالتالي تعددية جوانب الخطاب، في حين امتاز الخطاب المعماري العربي الاسلامي بشمولية التصور باعتبار العمارة والعمران محكم بشكل دائري تصاعدي مركزه القران فالسنة والشريعة واخيرا الاعراف. ومن حيث الية البناء الفكرية فقد امتاز الخطاب لل\المعماري الغربي باستنطاق التاريخ للحصول على القوانين العامة واستقراء النتاج المعماري في حين اعتمد الخطاب المعماري العربي الاسلامي على استنباط القيم التراثية وروح القانون. وتباينت مفردة اعتمادية الخطاب، اذا اعتمد الخطاب المعماري الغربي على طمس شرعية الاختلاف القائم على التباين البيئي والثقافي، في حين اعتمد الخطاب العربي الاسلامي على العقيدة، الاصل البيئي، والاصل الثقافي والحضاري كاساس له. وهدف الخطاب المعماري الغربي إلى طرح الاسس والقوانين والحتميات المتحكمة بالعمارة وتطبيقاتها، في حين هدف الخطاب المعماري العربي الاسلامي إلى استخلاص مبادئ واضحة لبناء وتوجيه الفكر المعماري وتدعيم العملية التصميمية بارساء قواعد محددة لتعريف العمارة المحلية. وتمثلت ايجابيات الخطاب المعماري الغربي باقراز سجل لمفردات ومفاهيم جديدة، وتحديد وسائل بحثية وتقيمية مختلفة، في حين تمثلت ايجابيات الخطاب المعماري العربي الاسلامي في التوفيق ما بين الحس والمادة، الذات والروح العقيدة والعلم، الدين والدنيا وبالتالي شموليته. وتعددت سلبيات الخطاب الغربي من خلال اخفاقه في تجسيد مبادئ الخطاب نتيجة للشرخ ما بين النظرية والتطبيق، كما ان الخطاب اصبح سجين الارقام والحسابات والقياسات والتحليلات النظرية، واستبدل الخطاب الحقائق المطلقة بسيل من الشكوك والتساؤلات، محاولا عقلنة الابداع وعلمنته وتضاربت نتائج الدراسات التجريبية نتيجة للتعارض الحاصل بينهما وبالتالي فقدلن مصداقيتها. ولعل ابرز سلبية امتاز بها الخطاب المعماري الغربي هي استئصال صلة الوصل مع المجتمع، وتعثر الوصول إلى معرفة قادره على استيعاب كافة تعقيدات وتركيبات الطبيعة الانسانية ضمن نظام محدد. وصنف الخطاب المعماري الغربي إلى التعليمي والنظري والتطبيقي، والعربي الاسلامي إلى الخطاب التاملي والانجازي.

وتباينت مفردات الخطاب التأملي والانجازي من حيث طبيعة المفردات اذا اهتم الخطاب التاملي بالتعابير الفلسفية والمفاهيم لبناء فكر اسلامي والتعرف على الذات، في حين اهتم الخطاب الانجازي بالمنظومة المعمارية ضمن المنظومة الحضارية الاشمل، وتركز محور اهتمام الخطاب التاملي بالدلالة الروحية والمعنوية ومحدودية التصور المادي، في حين تركز اهتمام الخطاب الانجازي بابتكار الحلول المعمارية واختبارها والتوفيق بين المعاصرة والتأصل. وتناول الخطاب التاملي مجاله البحثي من خلال اصول عملية تكوين الخطاب العربي والتعرف على طبيعته وأستكشاف المبادئ والمفاهيم، في حين تناول الخطاب الانجازي مجاله البحثي مركزا على تحديد اسس

ومقومات الالية المولدة للبيئة المعمارية وتدوين المفردات المعمارية التراثية بهدف الاقتباس والمحاكلة. اما خصوصية معايير تقييم الخطاب المعماري العربي فامتازت بثبوت المعايير الاساسية لتقييم مضمون العمارة تبعا لحكم الشريعة كمرجع ثابت وحرية اختلاف مقدرات التشكيل والتغيير لارتباط العمارة بزمن ومكان محددين.

ونظر الخطاب المعماري الغربي للجمال كغاية وهدف قائم على قواعد مادية وتقنية ومبادئ جامدة في حين دعم الجمال بالتوجيه الاسلامي وحدود المنفعة والاستعمال، كما يعتبر الاحساس بالجمال تلملا بالكون. ويؤكد الباحث فكرة الجمال في الفلسفة الاسلامية بسرمدية الله وفناء الكائنات، لذا لاتظهر بواعث اهتمام الفنان المسلم بالوجود الارضي بل الوجود الازلي لذا تكمن معرفة الجمال بالتقرب إلى الله روحيا بواسطة الحياة المتقشفة لمعرفة الجمال الالهي.

وتباينت سبل انتاج القيمة الجمالية والتي اعتمدت على اطلاق العنان للتصور العشوائي الشخصي لقيم الجمال في الخطاب الغربي وعلى اساس نتائج عملية عفوية تعكس ذوقا حدسيا نابعا من المخزون الثقافي والبيئي والعقائدي للفرد داخل الذوق الاجتماعي في حدود الحقوق والحريات للخطاب المعماري العربي الاسلامي. وتعددت القواعد الجمالية في الخطاب المعماري الغربي والمتمثلة بغياب الانسجام والتجانس لغياب قاعدة مرجعية ثقافية متماسكة، واستغلال الهيمنة الشكلية للتشويش الثقافي والحضاري في ظل غياب تعبير حسي وذوقي مشترك، واعتمادية الخطاب الجمالي على الفن والموديلار، والفصل بين قانون الشكل الجيد والقيم الجمالية الاجتماعية، في حين امتاز الخطاب المعماري العربي بارتباط الوظيفة الجمالية بالعلمية، واعتماد مبدا لاانفصام بين الشكل والمضمون، كما عد الاختلاف التشكيلي الناجم عن البيئة والحضارة من عوامل الابداع والتطوير والتعبير الجمالي واخيرا عكس القيم الجمالية للدور الثقافي وتاكيد الهوية والاحساس بها.

واوضحت نتائج طروحات (عكاش) تباين اهتمام الخطاب المعماري الغربي عن العربي الاسلامي، اذ اشارت الطروحات إلى تمثل محاور اهتمام الخطاب الغربي بالانية والفردية والتغيير اضافة للجماليات الشكلية وتفاصيل المكان في حين اهتم الخطاب العربي بالهوية والابعاد الانسانية.

وتباين الخطابان في اعتمادية تعامل الفرد مع محيطه فبينما اعتمد الخطاب الغربي على الخبرة المستقاة من التجربة ومضمونها، اعتمد الخطاب العربي على شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والاعراف والتقاليد والاحكام الفقهية. لقد اوضحت الطروحات اعتماد الخطاب الغربي الية الفصل بين العقل والجسم وبين العالم الحسي والعقلي وبالتالي بين الذات الواعية واشياء العالم المرئي وقد ادى هذا الفصل في اسلوب تفكير الانسان بالمحيط البيئي والمتمثل بفقدان علاقة الانسان بمحيطه البيئي نتيجة الفصل بين ذات المصمم الواعية والنتاج المعماري المتمثل بالصورة المصممة ذات الابعاد، فيما اعتبر الخطاب المعماري العربي الاسلامي المحيط البيئي امتدادا للافعال الانسانية والتي تجعل من المحيط البيئي ذات طبيعة متحولة ومتلونة. واعتمد الخطاب المعماري الغربي اسلوب فهم العالم الخارجي قائما على المبدا العقلاني والشك. ويرى الباحث بان اليقين قد اكد عليه الخطاب الاسلامي "كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الحجم"، "واعبد ربك حتى ياتيك اليقين". وفصل الخطاب المعماري الغربي النظرية عن التطبيق اعتمادا على الوعي الذاتي اذا اعتبر النفس اداة للعقل الواعي فقط وهي واعية متعالية عن الجسم غير الواعي، في حين اعتمد الخطاب المعماري العربي الاسلامي اسلوب الفصل بين النظرية والتطبيق دون الاعتماد على الفصل الصريح للوعي الذاتي بل اعتمد مبدا التتام، اذ لم يعتبرو النفس اداة للفعل الواعي فقط.

وامتاز الخطاب الغربي في نظرته للوجود ورسم المكان بالفصل بين وجود الانسان والاشياء، كما اعتبر الاهتمامات هي التي ترسم حدود المكان وبالتالي

تحدد علاقتنا بالاشياء لذا اعطى مفهوم الحيز معنى الفراغية والجسمانية معا. في حين اولى الخطاب المعماري العربي الاسلامي الارتباط المكاني اهمية من خلال فكرة تقلب خواطر الفرد التي توجه اهتمامه وتهيئه للتقلب والتغير في محيط وجوده مفترضا قدره المسلم على التحكم بافكاره وممارسته من خلال السيطرة على خواطره واهتماماته.

واشارت نتائج طروحات (نضير بو عبيد) إلى تباين الخطابين في وجهات النظر تجاه الابداع والعمارة كثقافة واصول مرجعيتها، اذا اعتمد الخطاب المعماري الغربي الفن كوسيلة للابداع كما نادى بالمرجعية الذاتية والاستقلالية المعمارية ورفض اعتبار العمارة انعكاسا لمضمون فكري معين وتمثلت هذه الحالة بالتفكيكية وانهدام المرجعية الفكرية للمفاهيم المعمارية وتجريدها من المعاني الخارجة عن تشكيلها. ويضيف الباحث إلى العديد من المفردات التصممية التي اعتمدتها التفكيكية كالتشويش، الاقحام، الانتهاك، الاختراق، التشتت، التغريب، الانسلاخ، التهشيم، التمزيق، وغيرها. وتمتلك هذه المفردات قيما معنوية ذات دالالة سالبة في مفردات اللغة العربية. ويشير الخطاب المعماري العربي الاسلامي إلى الابداع والعمارة والثقافة من خلال نظرة وحدودية متالفة تعزز بالمرجعية الدينية والاخلاقية وذات دور فعال في العملية الاستيلادية للشكل كمفهوم لهوية العقيدة وابداعها. كما تتباين وجهة نظر الخطابين تجاه مفهوم الاصالة والمعاصرة، فبينما يرى الخطاب الغربي في الفن استمدادا للماضي وسطلته التاريخية وطابعه الاثري، يرى الخطاب العربي في توازن الهوية المرجع الاساس في كتقيم القديم والجديد. وتباين الخطابان كذلك في نظرتهما للمعنى والتعبير فبينما يركز تعبير الخطاب الغربي على التجريد الفني للشكل، واهمية الرمز في شكله المادي ومدلولاته الاعتبارية الجمعية من عواطف واعتقادات ومثل عليا، يركز الخطاب العربي الاسلامي على الهندسة المنتظمة للموروث المعماري العربي ذات الدلالات على مرجعية الوحدة والتالف للنتاج المعماري ضمن المجتمع كاساس للتعبير والمعنى.

واوضحت الطروحات الغربية اعتمادية ادراك المكان على مستوى التنظيم الموجود فيه، والتميز الشكلي للمباني وموقعها واهميتها الاستخدامية والتاريخية كاساس لتذكرها، ومن خلال وضوح الصورة الذهنية المعتمد على التنظيم الفيزيائي، والابعاد المعنوية (semantic) والسيميائية (Semiotic).

واخيرا توضح طروحات (ثروت عبد المسيح) بعد اجراء مماثلة (Analogy) لبعض المفردات للخطاب الارسطي مع الخطاب المعماري العربي الاسلامي والخطاب اللارسطي مع الخطاب المعماري الغربي تباين مفردات الخطابين في نظرتيهما تجاه الوجود الانساني في الكون، فبينما يرى الخطاب الغربي وجود الانسان كنقيض للكون، يرى الخطاب العربي الاسلامي وجود الانسان كمتمم له ويضيف الباحث ان وجهة نظر الفكر الغربي تجاه الحياة تبدا بالولادة وتنتهي بالوفاة في حين يعتمد الخطاب العربي الاسلامي فكرة الحياة الاخرى (بعد الموت) وتكمن حياة الفرد الاسلامي الاساسية في حياته الاخروية. ويرى الخطاب المعماري الغربي تغير طبيعة الانسان في حين يرى الخطاب المعماري الاسلامي ثبات طبيعة الانسان وتغير اشكال احتياجاته، وبذا تباين الخطابان في مفردات تجسيد النظرة تجاه الوجود، فبينما يركز الخطاب الغربي على مفردات الانسلاخ، الفوضى واختلاط المعايير، العزلة، العدمية، والتغريب أي جعل الشيء المالوف يبدو غريبا، يركز الخطاب العربي على الاغناء والاثراء والوحدة والتجانس ويؤكد الباحث بروز مفردات الخطاب الغربي بشكل واضح في العمارة التفكيكية. وكآلية لتجسيد تلك المفردات اعتمد الخطاب الغربي على عدة قواعد منها انتفاء التسلسل الحتمي وحدوث الامور بصورة غير متوقعة وفجائية والخروج عن الانسجام بشكل غير منطقي او عقلاني وقطع الجذور الدينية، يركز الخطاب العربي على

جدول (١): مرتكزات الخطاب المعماري الغربي والعربي الاسلامي

المفردات	الخطاب المعماري الغربي	الخطاب المعماري العربي الاسلامي
النظرة تجاه الوجود الانساني في الكون	وجود الانسان نقيض للكون	وجود الانسان متمم للكون
اسلوب فهم العالم الخارجي	عقلاني، قائم على الشك	مادي روحي قائم على اليقين
طبيعة الانسان	متغيره	ثابتة ساكنة، اما اشكال احتياجاته فهي متغيرة
مرجعية الخطاب	الفلسفة الفردية الداعية إلى استقلالية العمارة	الفكر الديني والمرجعية العقائدية والتشريعية
طبيعة الخطاب	الاستقلالية المعرفية للعمارة أي بناء هيكل معرفي علمي لها، وتمسك المعماريون بنظرة احادية ملمة بشتى جوانب الظاهرة المعمارية	شمولية التصور باعتبار العمارة والعمران محكم بشكل دائري تصاعدي مركزه القران فالسنة والشريعة واخيرا الاعراف
اعتمادية الخطاب	طمس شرعية الاختلاف القائم على التباين البيئي والثقافي	- العقيدة - الاصل البيئي - الاصل الثقافي والحضاري
هدف الخطاب	طرحا الأسس والقوانين والحتميات المتحكمة بالعمارة وتطبيقاتها	استخلاص مبادئ واضحة لبناء وتوجيه الفكر المعماري وتدعيم العملية التصميمية بارساء قواعد محددة لتعريف العمارة المحلية
سمات الخطاب	عقلاني، عالمي، علمي، علماني، تجريدي، مثالي	تاملي استنباطي ونقدي تحليلي، مسلما بقصور العقل الانساني عن الاحاطة بكل تعقيدات الوجود البيئي
الية البناء الفكري	استنطاق التاريخ للحصول على القوانين العامة واستقراء النتاج المعماري	استنباط القيم التراثية وروح القانون
اصنافِ الخطاب	تعليمي تحديدي، نظري وتطبيقي	تاملي، انجازي
محاور الاهتمام والتركيز	الانية، الفردية، التغيير، الجماليات الشكلية وتفاصيل المكان، العدمية، التغريب اي جعل الشيء المالوف يبدو غريبا	الهوية، والبعد الانساني التاملي: الدلالة الروحية والمعنوية ومحدودية التصور المادي الانجازي: – ابتكار الحلول المعمارية واختبارها – التوفيق بين المعاصرة والتاصيل
القوى المجسدة	قوى التنافر ومفردات الانسلاخ، التغريب، اختلاط المعايير، الفوضى، العزلة، العدمية، التفكيك، والتعقيد	قوى التضام ومفردات الاغناء، الاثراء، الوحدة والتجانس، البساطة
مفردات الخطاب	المفردات الشكلية، الرمزية،	التاملي: التعابير الفلسفية والمفاهيم لبناء فكر

	التكنلوجية... الخ	اسلامي والتعرف على الذات. الانجازي: المنظومة المعمارية ضمن المنظومة الحضارية الشاملة.
المعنى والتعبير	التجريد الفني للشكل، اهمية الرمز في شكاه المادي ومدلولاته الاعتبارية الجمعية من عواطف واعتقادات ومثل عليا. التعبير عن المواقف التواصل بنمط من الصور الشاعرية poetic /images	الهندسة المنتظمة للموروث المعماري العربي، ذات دلالات على مرجعية الوحدة والتالف للنتاج المعماري ضمن المجتمع التعبير عن احداث
اداة التعبير	الصور المسندة (concerted images)	المفاهيم ذات الابعاد الفكرية (conceptual thoughts)
النظرة للوجود رسم والمكان واعتمادية الارتباط المكاني	الفصل بين العقل والجسم والعالم الحسي والعقلي (ثنائية الوعي والامتداد) الفصل بين الذات الواعي واشياء العالم فقدان علاقة الانسان بمحيطه البيئي الفصل بين ذات المصمم الواعية والصورة المعمارية المصممة ذات الابعاد وبالتالي اعتبار الانسان كملاحظ	المحيط البيئي امتداد للافعال الانسانية وتجعل المحيط البيئي ذات طبيعة متلونة متحولة وبالتالي اعتبار الانسان كمنتسب
اعتمادية الارتباط المكاني	درجة اهتمامنا بالاشياء التي في حوزتنا والتي تشكل عالمنا وبالتالي اعطاء مفهوم الحيز معنى الفراغية والجسمانية	تقلب الخواطر هو الذي يوجه اهتمامات الانسان والتي تهيئ للتقلب والتغيير في محيط وجوده. قدرة المسلم على التحكم بافكاره وممارساته من خلال السيطرة على خواطر اهتماماته
أعتمادية تعامل الافراد مع المحيط	الخبرة المستقاة من التجربة ومضمونها	الشبكة المعقدة للعلاقات الاجتماعية ،الاعراف ، التقاليد ، الاحكام الفقهية
ادراك المكان	يعتمد على مستوى التنظيم الموجود فيه. تذكر المباني بسبب تميزها الشكلي وموقعها بالنسبة لزاوية النظر ، وبسبب أهميتها الاستخدامية والتاريخية والعوامل الثقافية الاخرى	شمولية ارتباط العوامل الوظيفية والشكلية الاجتماعية
وضوح قيمة الصورة الذهنية	يعتمد على التنظيم الفيزيائي المعنوي (semantic) ،الارتباطي(semiotic	

وجهة النظر تجاه الابداع والعمارة كثقافة واصل مرجعيتهما	الابداع بواسطة الفن، المناداة بالمرجعية الذاتية والاستقلالية المعمارية ورفض اعتبار العمارة انعكاسا لمضمون فكري معين (التفكيكية) (انهدام المرجعية الفكرية للمفاهيم المعمارية وتجريدها من المعاني الخارجة عن تشكيلها)	وحدوية متآلفة تعزز بالمرجعية الدينية والاخلاقية ودورها في العملية الاستيلادية للشكل كمقوم لهوية العقيدة وابداعها.
الاصالة والمعاصرة	يستمد الفن من الماضي سلطته التاريخية وطابعه الاثري	توازن الهوية هو المرجع في تقييم القديم والجديد
النظرية والتطبيق	فصل النظرية عن التطبيق بالاعتماد على الوعي الذاتي اذ اعتبر النفس اداة للعقل الواعي فقط واعتبروها واعية متعالية عن الجسم غير الواعي	فصل النظرية عن التطبيق دون الاعتماد على الفصل الصريح للوعي الذاتي بل متممه لم يعتبروا النفس اداة للعقل الواعي فقط .
خصوصية معايير التقييم	ذاتيةوموضوعية تعتمد على المقيم والجماعة بدون مرجع ثابت	- ثبوت المعايير الاساسية لتقييم مضمون العمارة تبعا لحكم الشريعة كمرجع ثابت. - تغير المعايير الثانوية نتيجة حرية اختلاف مقدرات التشكيل والتغير لارتباط العمارة بزمن ومكان محددين
ايجابيات الخطاب	-افراز سجل لمفردات ومفاهيم جديدة -تحديد وسائل بحثيه وتقييمية مختلفة	-التوفيق بين الحس والمادة ،الذات والروح ، العقيدة والعلم ، الدين والدنيا وشمولية الخطاب
سلبيات الخطاب	-اخفاق تجسيد مبادئ الخطاب نتيجة للشرخ بين النظرية التطبيق. -التطرف باستخدام الارقام والحسابات والقياسات والتحليلات الرياضية -استبدال الحقائق المطلقة بسيل من الشكوك والتساؤلات -محاولة عقلنة الابداع وعلمنته -مشكلة الشرعية العلمية والتطور. -تضارب الدراسات وفقدان مصداقية التجربة للتعارض الحاصل. -قطع صلةالوصل مع المجتمع -تعثر الوصول إلى معرفة قادرة على استيعاب كافة تعقيدات وتركيبات الطبيعة الانسانية ضمن نظام محدد -عدم استطاعته تقديم براهين خطابية. -عدم امكانيته لحل المشاكل.	-ندرة الدراسات التجريبية - صعوبة اشتقاق المفردات من المراجع التشريعية والفقهية.

الترابط مع الجذور الدينية والتسلسل الحتمي والانسجام. ويستند الخطاب الغربي على الصور المسندة (concrete image) كاداة للتعبير عن نتاجاته الشكلية، في حين يستند الخطاب المعماري العربي الاسلامي على مفاهيم ذات ابعاد فكرية (conceptual thought) كأساس للتعبير عن نتاجاته. كما تمثلت مشاكل الخطاب الغربي في عدم قدرته على تقديم براهين خطابيه وبالتالي عدم امكانيته لحل المشاكل. واخيرا يتباين الخطابان في علاقة الانسان تجاه المحيط فبينما يرى الخطاب الغربي الانسان ملاحظا يرى الخطاب الاسلامي الانسان منتسبا لمحيطه.

جدول (١) يوضح مرتكزات الخطابين.

٤- الاستنتاجات والتوصيات

أ- الاستنتاجات

-تباين الخطاب المعماري الغربي والعربي الاسلامي في غالبية المرتكزات والتي تشمل النظرة تجاه الوجود الانساني في الكون، واسلوب فهم العالم الخارجي، طبيعة الانسان، مرجعية الخطاب وطبيعته، اعتمادية الخطاب وهدفه وسماته، آلية البناء الفكري للخطاب واصنافه، محاور التركيز والاهتمام، اسلوب التجسيد ومجال البحث ،طبيعة النظرة للجمال وسبل انتاج القيم الجمالية وقواعدها، ادراك المكان، وجهة النظر تجاه الابداع والعمارة كثقافة واصول مرجعيتها، الأصالة والمعاصرة، النظرية والتطبيق، خصوصية معايير التقييم، المعنى والتعبير وادواتهما، الارتباط المكاني والتعامل مع المحيط ،واخيرا ايجابيات وسلبيات الخطاب.

- اولوية الفكر الديني والمرجعية العقائدية والتشريعية في بناء الخطاب المعماري العربي الاسلامي واعتماديته على العقيدة والاصل البيئي الثقافي والحضاري.
- اهمية الفلسفة الفردية الداعية إلى الاستقلالية المعرفية للعمارة في بناء الخطاب المعماري الغربي المتسم بالعقلانية والعلمية والتجريدية والعلمانية والمثالية.
- اسبقية مفردات العزلة، العدمية، التغريب، الانسلاخ في بناء سمات النتاج المعماري للخطاب الغربي وتجسيدها بمفردات متعددة مثل التهكم، الاختراق، الاقتحام، التمزيق وغيرها من المفردات ذات القيم المعنوية السالبة.
- الجمال الشكلي غاية الخطاب المعماري الغربي وقواعده المتعددة في حين يرتبط الجمال بحدود المنفعة والعقيدة في الخطاب المعماري العربي الاسلامي.
- اهمية الصور المسندة (Concrete images) في بناء نتاجات الخطاب المعماري الغربي، والمفاهيم ذات الابعاد الفكرية (Conceptual thoughts) في بناء النتاج الشكلي للخطاب العربي الاسلامي.
- اهمية الفن كعنصر رئيسي للابداع في الخطاب المعماري الغربي ووحدة الابداع والعمارة بالمرجعية الدينية في الخطاب العربي الاسلامي.
- أولوية مفردة الفصل ما بين الانسان والعمارة ومحيطها المكاني وما بين النظرية والتطبيق في الخطاب الغربي، وأولوية الاندماج والامتداد للفعل السلوكي البشري مع المحيط المكاني والعمارة في الخطاب العربي الاسلامي
- واخيرا يمكن بناء الاستنتاج النهائي بان الخطاب المعماري الغربي يقوم على الانا والفلسفة الفردية ذات المرجعية المتغيرة القائمة على قوى التنافر والفصل ومضامينها كالتفكيك والتغريب والعدمية متأثرا بالابعاد الزمانية ومحاولا تعظيم القيم الجمالية الشكلية باستخدام الفن والصور المسندة لرفع مستوى اللذة المادية لحياة الفرد. وان الخطاب الغربي خطاب علماني، علمي، مثالي، تجريدي، عالمي، استقرائي، اديولوجي، منهجي.
- في حين يقوم الخطاب المعماري العربي الاسلامي التأملي على المعية ومبادئ شاملة ثابتة راسخة تتمثل بالفكر الديني والمرجعية العقائدية

والتشريعية واصول العقيدة والبيئة والثقافة والحضارة والخطاب المعماري العربي الاسلامي خطاب معرفي استنباطي استدلالي، يعتمد على قوى التضام والتماسك والتجانس والاتصال والانسجام ومفردات البساطة والوحدة محاولا التسليم بقصور العقل الانساني عن الالمام بكل تعقيدات الوجود البيئي، محاولا تعظيم القوى الروحية وتخفيض مستوى اللذة المادية لحياة الفرد الدنيوية بالتقشف على امل اكتسابها بصورة أعظم بالحياة الاخرى، متخذا من الوجود العمراني امتدادا للفعل السلوكي الانساني وبصورة متوازنة، شاملة الابعاد الدينية والاجتماعية والوظيفية والجمالية والبيئية والحضارية والثقافية وغيرها وبذا فان الخطاب المعماري العربي الاسلامي اكثر شمولية وثباتا.

ب- التوصيات

يوصي الباحث:

- اعداد دراسات تاخذ بنظر الاعتبار التعمق بمفردات الخطاب المعماري العربي الاسلامي وتطويعه بما يتوائم والموروث الحضاري لترسيخ اسس بناء عمارة محلية مميزة.
- استثمار الدراسة الحالية ومفرداتها بغية اغناء تجارب وخبرات العملية التصميمية ونتاجاتها المتميزة
- الحد من امكانية هيمنة أو غزو مفردات الخطاب المعماري الغربي في العملية التصميمية وخصوصا في المؤسسات الاكاديمية المحلية ذات العلاقة .
- التأكيد على خصوصية مفردات الخطاب المعماري العربي الاسلامي والكشف على طبيعة تباينه مع مفردات الخطاب المعماري الغربي وخصوصا في الممارسات الاكادمية .
- استثمار التقدم العلمي في اثراء الخطاب المعماري العربي الاسلامي ومفاصلة البحثية
- مناقشة بقية المفردات الخاصة بالخطابين والتي لم يتناولها البحث الجاري .
- استخلاص المفردات المعمارية المعبرة عن الاساس الحضاري والثقافي والبيئي، والمحلي ودراسة امكانية سبل تحديث صياغتها.
- التاكيد على تغريز الاواصر الرابطة للعمارة مع المجتمع وعدم محاولة فصلها عنه.

المصادر

١. عكاش، سامر، تنظير العمارة وتجربة الحياة اليومية، بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، اكتوبر ١٩٩٩ ، p٨٨ .

٢. بودماغ، سعاد، الخطاب المعماري بين الفكر الغربي والفكر العربي الاسلامي، بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، اكتوبر ١٩٩، ١٢٦-١١٣pp.

٣. عبد الباقي ابراهيم، مقدرات التشكيل المعماري الاسلامي، المنهل (تشرين الاول/اكتوبر- تشرين الثاني/نوفبر ١٩٩٤)، p.٥٠.

٤. عكاش، سامر، تنظير العمارة وتجربة الحياة اليومية، بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربي، اكتوبر ١٩٩٩، ١١٣-٨٨pp.

٥. نظير ابو عبيد، المشهد المكاني كمفهوم سلوكي بيئي في تحليل التواصل مابين العمارة والمجتمع، بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربي، اكتوبر ١٩٩٩، ١٣٦-١٢٧pp.

٦. ثروة، يوسف عبد المسيح، مسرح اللامعقول، الطبعة الثانية، مطبعة النهضة، بغداد، ١٩٨٥، pp.١٧-١٧٣.

٧. نفس المصدر السابق (١٤٤-١٣٠pp.).

٨. نفس المصدر السابق (١٢٢-١٢١pp).